

## الشعر العربي بين الأصالة والمعاصرة

عطايفة بن عودة  
المركز الجامعي / غليزان

تمهيد:

أمام جملة الاجتهادات والفرضيات التي حاول بها النقد الحديث تقديم حقيقة التراث في صورتها الأدبية والفكرية، كانت التجربة الإبداعية تحاول شق طريقها، في جو هيمن عليه الطابع الفردي الذاتي واتسعت فيه مضامين التجربة الشعرية لتضيف أبعاداً جديدة في ظل حركة التجديد الشعري التي تبنت موقف الثورة والتحرر من كل الأساليب والصيغ التقليدية، ليتسنى لها خلق تجربة شعرية متميزة في جوهرها وشكلها عما سبقها من التجارب، حيث كان بعض المجددين ينظرون إلى طبيعة التجربة القديمة على أنها كانت تقوم على أساس أن الشاعر وحدة قائمة بذاتها في صحراء الزمان لا صلة لها بالعصر ولا رابطة لها<sup>(1)</sup> في الوقت الذي حكمت فيه هذه النظرة مبدأ الصدق في التجربة وكأن التجربة القديمة كانت خالية من صدق التعبير عما كان يحيط بصاحبها.

وواقع أن الحقيقة التي نستشفها أنها عبرت عن وضع حضاري متميز بخصائص عصره وبيئته، عصر ميز الشاعر ورؤيته وبيئته من عصر ورؤية وبيئة من سبقوه وجاءوا من بعده<sup>(2)</sup>، انسجاماً مع إطار وحد التطور الذي وصلت إليه آنذاك الحياة<sup>(3)</sup>، يقول عباس محمود العقاد: " كان شعر العرب مطبوعاً لا تصنع فيه وكانوا يصفون ما وصفوا في أشعارهم، ويذكرون ما ذكروا، لأنهم لو لم ينطقوا به شعراً لجاشت به صدورهم زفيراً، ومرت به عيونهم دمعاً، واشتغلت به

أفندتكم فكراً... " (4). والعقاد ينظر إلى التجربة الشعرية القديمة في إطار خصوصية العصر وطبع صاحبها وأثار البيئة التي عاش فيها التجربة القديمة لم تكن مجرد صيغة تعبيرية غنائية، واهتمامات فردية حسية، وإنما كانت رؤية حضارية وموقفاً نفسياً ووجودياً من هموم العصر وأحداثه.

### الشعر بين الأصالة والتجديد:

تتضح لنا آفاق الحركة التجديدية الشعرية وأبعادها، عندما حاولت نبذ كل الصيغ التقليدية ومناداتها بوجوب خلق صيغ ومضامين شعرية جديدة تستجيب لروح العصر وتستوعب مشكلاته، معبرة عين كينونته: " فكل عمل لشاعر لا بد أن يتم عن ذاته، عن روحه، عن تفرد، عن عبقريته وموهبته وشخصيته، تماماً كلون عينه وشعره وبصمات أصابعه: كذلك مجموع شعر عصر أو جيل أو أمة، لا بد أن يتم عن روح هذا العصر وطبيعة هذا الجيل وشخصية الأمة. " (5)، فإذا كان الشعر الجيد تحكمه قاعدة التجديد فلا بد لهذا التجديد أن تحكمه قاعدة متينة يستند إليها نشدانه للتطور ولروح وجوهر التجربة الشعرية وشكل جوهرها، لا بد أن يقوم هذا الشعر على دعامين هما الأصالة والتجديد (6) فالأصالة ترتبط بالتجديد فهل كلمة الأصالة معنى التجديد؟ وهل هي نقيض للتقليد؟ وهل توفر الأصالة - شرطاً - في التعامل مع التراث تعني اتخاذ موقف من العصر؟ ففي العقود الأولى من هذا القرن التي احتضنت حركة التجديد الشعري بدءاً بمطران ومروراً بجماعة الديوان والمهجر الشمالي ووصولاً عند جماعة ابولو، كان مصطلح الأصالة قليل الوجود - مقياساً نقدياً - ويخيل إلينا أن الأصالة استخدمت تحت اسم الابتكار الذي كان أحد المتقابلات الأربع آنذاك: التقليد والابتكار القديم والجديد (7)، بيد أن استخدام الأصالة، كان يختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة، فقديمًا عرفه ابن الرشيقي أنه: " ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره، أو ما يقرب منه... " (8)، فتفسير ابن الرشيقي جاء حاملاً للمعنى التجديد نقيض التقليد وصنو الابتكار والتميز (9)، على أن هذا المعنى جاء ليكبل

الشعراء بقيود صارمة، الشيء الذي رمى بهم إلى مدارك السرقات الأدبية في حين أنه لا وجود لجديد دون قديم يستند إليه ويرتكز على مقوماته، فلا مجال لأي أثر من شأنه أن يسبغه الفنان على عمله الفني، فالفنان تاركاً أثره في العمل الفني لا محالة مهما كان هذا الأثر ضئيلاً طبقاً لقول هربرت ريد<sup>(10)</sup>، بيد أن الأصالة قد تتخذ من العراقة صنوا لها، فهي تعني المحافظة على شيء موروث مع توفر الصدق والإخلاص، وكان استعمالها مرادفاً للعراقة، يعني المحافظة والتثبيت بقيم حضارية وتراثية موروثية (محافظة على طوابع أمة من الأمم)<sup>(11)</sup>، : "وأعني بالعراقة أن يكون الشاعر صادقاً في التعبير عما يحس به ويراه فلا يصف إلا ما جربه ولا يتكلم إلا على ما في نفسه من الانفعالات التي توحد الطبيعة والعقل وتمزج الواقع بالمثل الأعلى"<sup>(12)</sup>، فشرط التجديد في الشعر أن يكون أصيلاً وشرط أصالته أن يكون صادقاً مخلصاً في تعبيره.

### الشعر وثورة التجديد:

كانت الدعوة التجديدية في الشعر التي دأب جيل ما بين الحربين لخدمتها، ترتكز على مبدأ الصدق في التعبير واستقلال شخصية الشاعر، وتفرد رؤيته وتميزها في تجربته الإبداعية، حيث اتخذت من الثورة والتحرر إطاراً لها في مواجهة القيم الأدبية والفكرية الموروثة، فالشعر اليوم يعيش في عالم يختلف عن عالم تلكم القيم من نواح عدة: " فهم حينما يثورون على القديم وينكرونه إنما ينكرون الساقط منه، وحين يعنون به ويتعهدونه منه ما يرون أنه جدير بالبقاء، وهم يؤمنون بالتجديد لأنهم يؤمنون بالتطور والاستمالة... وهذه نتيجة طبيعة إذا سلمنا بأن التجديد تطور استماله. لأن التطور عملية حيوية تسير وفق نمط خاص كالكائن الحي وليست نقلاً عن كائن حي آخر"<sup>(13)</sup>، وعليه فإن الأصالة هي جوهر التجديد الشعري، ويخيل إلينا أن أي تجديد يخلو من عامل الأصالة يؤول إلى طريق التقليد والاجترار وسرعان ما يدوب كيانه وينهار قوامه أن بالنسبة إلى علاقته بالتراث، أو علاقته بعصره وثقافته: " وعملية (التأصيل)، سواء نظرنا إليها عند الأديب المنشئ أم عند الناقد الدارس، تنطوي على

جدال مستمر بين الأصيل والوافد، بحيث تبدو (الأصالة) عملية نسبية ومتطورة أشبه بتيار مطرد لا يتوقف أبداً. وهنا أيضاً يمكننا أن نبحث عن المقومات الثابتة والصفات المتغيرة بشرط ألا نفهم من الثبات معنى الجمود والمحافظة، وإنما هي مجاز نستعمله ونقصد به معنى الديمومة والاستمرار<sup>(14)</sup>، فالتجديد دائماً تكون به حاجة إلى رؤية تأصيلية تحكمه وتحدد إطار علاقاته ومسارها، فإن كانت الأصالة تعني بالنسبة إلى التراث المحافظة على قيمه ودلالاته، فإنها في ذات الوقت وبالنسبة للتجديد تتضمن معنى الديمومة والاستمرار<sup>(15)</sup>، وفي هذه الحال يرى أحمد هيكل وجوب وجود علاقة تكافؤ وتآزر بين الأصالة والتجديد، يقول: "وإذن فلا بد (للأصالة) من (تجديد) يكافئها ويسمونها عن أن تكون نقلاً للقديم أو مجرد محافظة عليه. ولا بد (للتجديد) من أن يستند دائماً إلى أصالة تعادله وتعصمه من أن يكون نقلاً للحديث وإقحاماً لشيء غريب على طبيعة الفن الشعري العربي كما تشكلت وتخلقت عبر العصور<sup>(16)</sup>، ولعل نظرة أحمد هيكل إلى مفهوم الأصالة كانت تستند إلى مبدأ التوفيق بين المحافظة على قيم التراث وديمومة التجديد وتفاعله، ضمن عملية إبداعية أصيلة وصادقة يتمكن الشاعر من خلالها من مخاطبة وجدان العصر وروحه والنبض فيه دونما أي تأثر بإشعاعات التيارات المعاصرة، ودونما فقد للصلة بالتراث، فالمحافظة هنا هي جوهر علاقة الشاعر بالتراث، كما أن الديمومة والاستمرار هي جوهر علاقة أصالته بالتجديد. وتتضح هذه العلاقة المتداخلة عندما يقف الشاعر أمام تجربة معاصرة، بحيث تعني الأصالة التفرد والتميز في علاقة الشاعر بالعصر وإنجازاته الحضارية والفكرية. فالأصالة -من منطلق المحافظة- لا تعني أنها وقف على القديم ونقيض للمعاصرة<sup>(17)</sup>، ويخيل إلينا أن الأصالة هي القانون الذي يحكم علاقات الشاعر مع التراث وعصره وبيئته في وقت كان فيه مصطلح المعاصرة يبدو غامضاً مبهماً، به حاجة إلى تحديد جمالي وفني، قصد الوقوف على ملامحه وتبيان مميزاته، ولاسيما في حقبة اتسمت بالتححرر والثورة على القيم الموروثة، ونبد القوالب المكررة، وفي ظل الظروف التي تم فيها اللقاء الحضاري بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية، وتبلور فيها الوعي الرومانسي الوجداني، مما ولد لدى القارئ والناقد والشاعر على حد سواء، نوعاً من الحساسية في التعامل مع قيم

التراث وآثار العصر: " والحساسية الجديدة عند قارئنا ومتذوقنا العربي أخذت تتأبي على الأشكال التقليدية لأدبنا العربي وقد ابتداءً هذا التأبي أو الرفض منذ أن تغير طابع الوجدان لإنساننا العربي (18).

### حقيقة المعاصرة:

فما معنى المعاصرة؟ أهي نقيض التقليد؟ أم هي استغراق الشاعر في وجدان العصر؟ وهل يمكننا تحديد المعاصرة بمدة أو زمن معينين؟ (19).

الواقع أن المعاصرة ارتبطت بالتحديد ارتباطها بالتراث والأصالة، في خضم احتدام حركة الصراع بين القديم والجديد، والمناداة بالتحديد في مضامين الشعر وقوابله. ففي إطار القديم والجديد نستطيع الوقوف على مفهوم المعاصرة، يقول العقاد: " والواقع أن الشاعر العربي كان يصف الناقة لأنها جزء من حياته يحس بها الأُنس في القفار الوحشة ويشرب من لبنها ويأكل لحمها ونسج ثيابه ومسكنه من وبرها، ويعرفها وتعرفه كما يتعارف الأصحاب من الأحياء، وينظر إلى مكائها من ضميره وخوارج حياته فإذا هي لا تفارقه ولا تحتجب عنه ولا تبرح ملازمة عنده لخيال من يحب وخيال من يمدح وخيال من يرجو وما يرجو من الناس والأصقاع والأمصار، فهو شاعر حق الشعاعية حين يصف الناقة لأنه إنما يصف في الحقيقة جزءاً من الحياة وجزءاً من الشعور وجزءاً من الإنسان، وهو أشعر ألف مرة ممن يحكيه بوصف الطيارة في العصر الحديث لأنها أحداث أدوات الموصلات ! كأننا لا نعيش إلا لنصف هذه الأدوات ونترصب بها على أبواب المصانع نموذجاً بعد نموذج لكي نسابق الدفاتر الصناعية بسردها وتفصيل حركاها وتحليل أجزائها وتصوير شتاها، وما هي بمستحقة منا الوصف لو نظرنا إلى الفن والأدب إلا بمقدار ما تبعته فينا من شعور وتفتحة لنا من خيال، وليست هي بعد ذلك بأحدث من الناقة فوق الأرض وتحت السماء، فإن الناقة لن تزال حديثة كحدث الإنسان ما بقي لها أثر في الوجود " (20). نفهم من كلام العقاد أن وصف إنجازات العصر ليس معناه (المعاصرة)، فليس الوقوف على آلات العصر

وإنجازاته الحضارية المادية يعد شيئاً معاصراً، فلا الوصف ولا الوقوف مما يحقق للشعر شروط معاصرته، فالمعاصرة في نظر العقاد: تفاعل الإنسان مع عصره عبر ما يحس ويلمس ويرى، وعبر ما ينعكس في ذاته في صورته الشعورية والانفعالية، إلى الحد الذي يصبح فيه جزءاً من العصر، ويصبح العصر جزءاً منه: " ليس المجدد في الشعر إذن هو من وصف عرف الطيارة والصاروخ وكتب عنهما، فهذه هي حقيقة محاولة عصرية ساذجة. فالشاعر قد يكون مجدداً حتى عندما يتحدث عن الناقة والجمل، فليس المهم بالنسبة للتجديد هو ملاحظة (شواهد) العصر ولكنه المهم فهم (روح) العصر " (21) وربما كانت مجازاة العصر والذوبان في أحداثه يجر الشاعر إلى تقليد مشابه كالذي نبذته دعوة التجديد في تصديها لصيغ وقوالب الشعر القديم: "... وكذلك قد نصادف في الشعر الجديد مجرد احتذاء وتقليد للنماذج الجديدة الأصيلة لا يتجاوز الظاهر. " (22) وقد تكون المعاصرة نبذاً للتقليد وهي على هذا نقيض "القدم"، إذا ما استخدمنا مصطلح المعاصرة استخداماً زمنياً، فإنها تعني النقيض (العراقية أو القدم) بحيث تبدو المعاصرة في التجربة الإبداعية وهي ممثلة لجانب الديمومة والحركية والحيوية (23): " ولكن المعاصرة أخص من ذلك، إذ أنها تعني حقبة متجانسة تمتد من الحاضر وتتبعه إلى بداياته، أي إلى بداية مشكلاته. ومن هنا فإن الحدود الزمنية للمعاصرة يمكن أن تتسع أو تضيق، ولكنها على كل حال يجب أن تظل مرتبطة بالديمومة التاريخية، وإلا انحدرت إلى شيء أشبه بالكتالوج السنوي الذي تصدره بيوت الأزياء " (24). غير أن مفهوم المعاصرة لا يقف عند حدود زمنية معينة، أو يرتبط بفترة تاريخية بعينها، حيث أن وضع مفهوم المعاصرة في إطار تاريخي أوزمني، من شأنه أن يفرغه من جوانب عدة منها الجمالية والفنية، التي دأب النقد الحديث على معاينتها، وحاول جاهداً الوقوف على مميزاته وخصائصه طيلة نصف قرن مضى، قصد تأسيس فلسفة جمالية نقدية الذات إطار الفني وأدبي محدد حيث: "... أن الشعر المعاصر يخلق جماليته الخاصة به من حيث الشكل والمضمون. وأثناء خلقه لهذه الجمالية يتأثر بحساسية العصر وذوقه ونبضه (25). فتأسيس فلسفة نقدية

وجمالية وفق رؤية معاصرة أصيلة، تتخذ من الشكل والمضمون منطلقا لها، وتتغذى على روح العصر وآثاره وأحداثه، وتنبع من صميم طبيعة العمل الفني جوهر الخلاف بينها وبين الفلسفة القديمة على حد تعبير عز الدين إسماعيل<sup>(26)</sup>، يجعل إشكالية العلاقة بين (المعاصرة) والشعر في إطارها التجديدي: "... أن قضية الحدائة والعصرية ليست قضية تطبع يتبعه طبع، ولكنها قضية صراع بين قيم موروثه وقيم مكتسبة، بين أماط من الحياة قديمة وأخرى جديدة، بين قوى نزاعة إلى التغير وقوى نزاعة إلى الثبوت " (27)

وفي هذا الإطار كان على القصبدة العربية الحديثة أن تعبر عن مستوى هذا الصراع الذي إحتضنته التجربة الشعرية، من خلال إتساع مضمونها ليشمل العام والخاص، وتتحد تحت ظله الرؤية الفردية بالرؤية الجماعية والمعاصرة بالتراث والقديم وبالجديد، من خلال تعاملها مع الحقيقة التراثية والحقيقة المعاصرة وفق تصور نقدي جمالي عام لا يخضع في أحكامه إلى ثابت والمتغير، ولا يقبل تجزئة الحقيقة، تجزئة زمنية، حقيقة لا تقبل التغير والتبدل في وهي الحقائق التراثية المنقولة إلينا، وحقيقة ذات أبعاد زمنية واقعية معبرة عن زمننا الذي نحياه ومعاصرنا التي تكون جسر إلتقاء بيننا وبين التراث الإنساني العام. أي نقطة إلتقاء التراث بالمعاصرة<sup>(28)</sup>، ويخيل إلينا أن التجزئة التي تجعل من الحقيقة حقيقتين، حقيقة ثابتة وأخرى متغيرة لا تخلو من رؤية إنتقائية، ولا تذهب بعيدا لتصطدم بالتطور والديمومة، الذي ينفي وجود فواصل زمنية بين ما هو تراثي وما هو معاصر، وموضوع التطور خاضع لوجدان الشاعر والعكس كذلك، كما أنه خاضع لرؤيته الذاتية: " ولكن هذا الوجدان العصري مشحون بميراث ماضية بحيث لا يمكن عزله عنه أو تبره منه. وقانون الوراثة يحتكم في حياة الأدب كما يحتكم في حياة كل كائن حي، ماديا ومعنويا"<sup>(29)</sup>. ونستطيع القول أن المعاصرة تمثل مشروع رؤية جمالية تتصل بوجدان العصر ولا تدوب فيه، وتستلهم من التراث ولا تتوقع في دائرته: " فالمعاصرة في الشعر العربي الحديث تعني شمولية الشاعر

وإتساع آفاق معرفته وطول عناقه لوجدان وهموم العصر، فالشعر ليس ضرباً من (المرهم الذي يهدئ الجراح التي تنكبنا بها الحياة) - كما اعتقد بيتس - بل قد يسمو في نظر الكثيرين عن كونه تصحب الوجود الإنساني، أو حماساً عارضة أوفورة طارئة أو تسلية مؤقتة (هو الأساس الذي يسند التاريخ). " (30). ومن هنا تتضح لنا ملامح المعاصرة من خلال التعامل مع التراث وروح العصر والمزاوجة بين حقائقها، حيث تتسع دائرة بحث الشاعر لتشمل الواقع واللاواقع، ويتمزج فيها المعقول واللامعقول، لتتضح له رؤية الحقيقة لإستشراف آفاق الوجود ويلتمس من خلالها عمق وأناة التمثل الفني والجمالي للتجربة الشعرية: " لأن معنى المعاصرة في الأدب أن يظل هذا الأدب بشكله ومحتواه قادراً على الإلهام وتفجير القضايا الآنية وإضاءة الوجدان المعصرة ببصيرة الوعي وحكمة الإقتحام... " (31).

وعليه تصبح الأصالة التي هي أساس الحقيقة التراثية الجوهر الإبداعي، والشكل الأغنى لمفهوم المعاصرة في حقل الأدب ومنه الشعر.

### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ينظر: علي أدهم، على هامش الأدب والنقد، دار الفكر العربي، القاهرة، (ب، ت)، ص146.
- 2- ينظر: ص22.
- 3- ينظر: محمد يوسف داود، لغة الشعر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1980، ص60.
- 4- عباس محمود العقاد، الطبع والتقليد في الشعر العصري مقدمة ديوان المازني، مراجعة محمود عماد، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الإجتماعية، القاهرة 1961، ص10.

- 5- أحمد هيكل، دراسات أدبية، دار المعارف بمصر، طبعة أولى، القاهرة 1971، ص37.
- 6- المرجع نفسه، دار المعارف بمصر، طبعة أولى، القاهرة 1971، ص36.
- 7- ينظر: شكري محمد عباد، الرؤيا المقيدة، دراسات في التفسير الحضاري للأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1978، ص22.
- 8- ابن رشيق، العمدة، الجزء الأول، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، طبعة رابعة، بيروت 1972، ص262.
- 9- ينظر: بدر الدين أبوغازي، مفهوم الأصالة والمعاصرة في الفنون التشكيلية، مجلة المعرفة، عدد161، تموز، دمشق 1985، ص18.
- 10- ينظر: محمد مصطفى هدارة، مقالات في الأدب والنقد، دار القلم، بيروت 1962، ص51.
- 11- ينظر: شكري محمد عباد، الرؤيا المقيدة، ص23.
- 12- جميل صليبا، الأدب العربي المعاصر، أعمال مؤتمر روما، ص200.
- 13- بدر الدين أبوغازي، مفهوم الأصالة والمعاصرة، ص20.
- 14- محمد شكري عباد، الرؤيا المقيدة، ص68.
- 15- ينظر: نفس المرجع، ص29.
- 16- أحمد هيكل، دراسات أدبية، ص38.
- 17- ينظر: بدر الدين أبوغازي، مفهوم الأصالة والمعاصرة، ص18.
- 18- صلاح عبد الصبور، حركة التجديد في الشعر العربي الحديث، ندوة مجلة " المجلة العدد 144، كانون أول 1968، شارك فيها بلند الحسيديري، عبد الوهاب البياتي وآخرون، ص90.

- 19- ينظر: محمد أحمد العزب، عن اللغة والأدب والنقد، حيث يستعرض المؤلف أهم التقسيمات أو المراحل التاريخية التي ألصقت بمفهوم المعاصرة وأرخت فيها بداية المعصرة، ويفرد أربع مراحل على حسب أهمية المرحلة التاريخية واجتماعية والثقافية (1) الحرب العالمية الأولى (2) ثورة 1919 بمصر. (3) مطالع الثلاثينات. (4) ثورة 1952 بمصر. تنظر: ص102، 103.
- 20- عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة، طبعة ثالثة، القاهرة 1965، ص50، 51.
- 21- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها، وظواهره الفنية والمعنوية: دار العودة ودار الثقافة، طبعة ثالثة، بيروت 1981، ص13.
- 22- المرجع نفسه، ص10.
- 23- ينظر: شكري محمد عياد، الرؤيا المقيدة، ص29.
- 24- المرجع نفسه، ص29.
- 25- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص10.
- 26- المرجع نفسه، ص13.
- 27- شكري محمد عياد، الأدب في عالم متغير، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة 1971، ص18.
- 28- ينظر: بلند الحيدري، التجديد في الشعر العربي الحديث، ندوة مجلة " المجلة "، العدد144، كانون أول 1968، شارك فيها صلاح عبد الصبور، عبد الوهاب البياتي وآخرون، ص90.
- 29- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف بمصر، القاهرة 1970، ص16.

- 30- عناد غزوان إسماعيل، الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر، محاضرة مهرجان المرشد الثالث، البصرة 1984، ص 10.
- 31- أحمد محمد العزب، عن اللغة والأدب والنقد، رؤية تاريخية ورؤية فنية، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت (ب، ت)، ص 104.